تعريفٌ بتفسير الطبري (جامع البيان عن تاويل آي القرآن):

ألَّفَ الإمامُ الطبريُّ تفسيره بعد ما تقدَّمَ به العمر، وقد قاربَ الستين من عمره، وبعدما حَقَّقَ المؤهلاتِ الأساسية الضرورية للتفسير، وتزوَّدَ بالزادِ العلمي الذي يُعينُه على التفسير: حفظَ القرآن حفظاً متقناً، وأتقنَ قراءتَه، وعَرَفَ القراءاتِ كلَّها الصحيحة والشاذة، وصارَ إماماً فيها، وصَنَّفَ فيها كتاباً، وجمعَ أقوالَ الصحابةِ والتابعين في التفسير، وكان بين يديه مختلف التفاسير المأثورة التي دوَّنَها التابعون وأتباعُ التابعين ومَنْ بعدَهم، كما كان بين يديه التفاسير البيانية للقرآن، وكان عالماً بالحديث، وكتب فيه الكتب النافعة، وكان عالماً باللغةِ العربية وعلومِها من نحوٍ وبلاغةٍ وشعرٍ وأدب، وكان واسعَ الباع في الفقه والأحكام، حتى ارتقى فيه إلى الاجتهاد المطلقِ المستقل، وكان عالماً بالعقيدةِ ومسائِلها، وبالتاريخ والسيرة، إضافةً إلى ما وهبهُ الله من مواهبَ فطرية، كالذكاءِ والفطنةِ والنبوغ، تمكَّنَ بها من التأويلِ والاستنباط والاستدلال!!.

تزوَّدَ الإمامُ الطبريُّ بهذه المؤهلات العلمية، وأقبلَ بها على القرآنِ يفسِّرُه، فجاءَ تفسيرُه رائداً بديعاً.

وقبلَ أنْ يشرعَ الطبريُّ في التفسير استخارَ الله في ذلك، وسألَه العونَ على ذلك ثلاثَ سنوات قبل البدءِ به، ثم شرحَ الله صدرَه له، وأعانَه على إكماله[1].

أطلق الطبريُّ على تفسيرِه اسمَ: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وهو يقصدُ هذا الاسم، لأنه دالٌّ على طبيعةِ تفسيره ومنهجِه فيه، وهدفِه منه.

أرادَ الطبريُّ من تفسيرِه أنْ يكونَ جامعاً لوجوهِ البيان في تفسيرِ القرآن، وجامِعاً لأقوالِ العلماء، وآراءِ المجتهدين، واجتهادِ الصحابة والتابعين، في المأثور والمنقول، وفي الرأي والمعقول.

وأرادَ من تفسيرِه أنْ يكونَ فيه تأويلُ آياتِ القرآن بعد تفسيرها، وأن يكونَ

---

(١) الإمام الطبري، للزحيلي، ص٩٤ـ٩٥.

فيه ترجيحُ الراجحِ من الأقوال المأثورة، واستنباطُ الصحيح من الدلالات، والاستدلال له.

يقولُ الدكتور محمد الزحيلي حول دلالة اسم تفسير الطبري على مضمونه: «سَمّى الطبريُّ تفسيرَه باسمِ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ليكونَ الاسمُ دليلاً على المسمى، والعنوانُ مشيراً إلى المضمون. وكان ذلك كذلك، وحققَ الإمامُ الطبريُّ ما قصد ووضعَ وأراد، فجاءَ التفسيرُ بحقٍّ يجمعُ وجوهَ البيان، وأقوالَ العلماء، وآراءَ المجتهدين، واجتهادَ الصحابة والتابعين، في المأثور والمنقول، والرأي والمعقول، ووازنَ بين الآراءِ المختلفة، ورجَّح ما وجده أقربَ أو أقوى..

وجاءَ استعمالُ الطبريِّ لكلمة (تأويل) مقصوداً، لأنه يريدُ بالتأويل درجةً بعد التفسير، خلافاً لقولِ بعضِ العلماء بأنَّ التفسيرَ والتأويل مترادفان.

يرى أكثرُ المتأخرين أن التفسير هو: بيانُ المعاني التي تُستفادُ من وضْعِ العبارة، أو أنه يرجعُ إلى معرفةِ المعنى بالنقلِ والرواية، وأنَّ التأويلَ هو: بيانُ المعاني التي تُستفادُ بطريق الإشارة، أو أنه معرفةُ المعنى بالاجتهادِ والاستنباط والرأي، وترجيحُ محتملاتِ اللفظ، والاستدلالُ على ذلك بالأدلةِ المختلفة، العقلية والنقلية، والتاريخية واللغوية، واستنباط الأحكام...

وهذا ما أرادَهُ الطبريُّ رحمه الله. فالتفسير عنده مقدمةٌ للتأويل.

التفسيرُ عنده هو: بيانُ المرادِ باللفظ، وهو ما نقلَهُ من مروياتِ الصحابة والتابعين.

والتأويلُ عنده هو: بيانُ المعاني المختلفة التي تحتملُها ألفاظُ القرآن.

فكان الطبريُّ يبينُ تلك المعاني المختلفة، ويسجلُ ما وردَ فيها عن السلف، ثم يعمدُ إلى الترجيح والموازنة ونقدِ الأسانيد، واستخدامِ اللغة والإعرابِ في بيان المراد، مع الاستشهاد بالتاريخ، واستنباطِ الأحكام.

هذا ما حرص عليه الإمامُ الطبري، وقصَده في عنوانه، والتزمَهُ في

تفسيره، فامتازَ التفسيرُ بذلك عن جميعِ التفاسيرِ المأثورةِ التي سبقتْه، ولذلك جاءَ تفسيرُ الطبريِّ جامعاً للتفسيرِ والتأويلِ معاً»[1].

شرعَ الإمامُ الطبري في كتابةِ تفسيره سنة: ٢٨٣هـ، وكان عمرُه حوالي ستين عاماً، وألَّفَهُ في ثماني سنوات، حيث أتمه سنة: ٢٩٠هـ.

سألَ الإمامُ محمدُ بن خزيمة تلميذَ الطبري أبا بكر بن بالَوَيْه: بَلَغَني أنك كتبتَ التفسيرَ عن محمد بن جرير؟ قال: بلى. كتبتُه عنه إملاءً!.

قال ابن خزيمة: كلَّه؟ قال ابن بالَوَيْه: نعم.

قال ابن خزيمة: في أي سنة؟ قال ابن بالويه: من سنةِ ثلاثٍ وثمانين، إلى سنة تسعين ومئتين!.

فاستعارَ ابنُ خزيمة التفسيرَ من ابن بالويه، وبعد أنْ قرأَه ردَّه إليه وقال له: لقد نظرتُ فيه من أولِه إلى آخره، وما أعلمُ على أديم الأرضِ أعلمَ من محمد بن جرير!»[2].

فأبو بكر بن بالويه جلسَ عند الطبري ثماني سنوات يكتبُ عنه التفسير، أي أنَّ الطبريَّ أملى تفسيره إملاءً على تلاميذه خلال هذه السنوات.

وبعد ما فرغَ الطبريُّ من تفسيرِه سنة: ٢٩٠هـ شرعَ في تأليفِ كتبٍ أخرى. ثم أعادَ تلاميذُه قراءةَ تفسيرِه عليه بعد ذلك.

في أولِ جملةٍ من تفسير الطبري: «بسم الله الرحمن الرحيم، وبه ثقتي، وعليه اعتمادي، رَبِّ يَسِّر: قُرِئَ على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، في سنة ستٍ وثلاثمئة»[3].

وكان عمرُ الطبريِّ عند إعادةِ قراءةِ تفسيره عليه اثنتين وثمانين سنة! وهذا من همتِه العالية!.

---

(١) الإمام الطبري، ص١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٣) تفسير الطبري: ١/ ٣.

أوردناها من قبل، والتي تدلُّنا بمجموعها على أُصولِ التفسير كما عرضَها الطبري.

وهي تؤكِّدُ ما قلناه من أنَّ منهجَ الطبريِّ في التفسير يوصَفُ بأنه (منهجٌ جامع) وأنه أَصَّلَ علمَ التفسير تأصيلاً منهجياً، وأنَّ هذا التأصيلَ كان يقومُ على ثلاثة أسسس هي: الأثر، واللغة، والاستنباط!.

منهج الإمام الطبري في التفسير:

تحدَّثنا فيما سبقَ عن أحسن طرق التفسير، وبيّنا توفُّرَها في تفاسير علماء السلف الذين تحدَّثنا عنها فيما سبق، كتفسير ابن عباس، وتفسير الحسن البصري، وتفسير سفيان الثوري.

وأحسنُ طريقِ التفسير تعني المنهجَ الصحيحَ في التفسير، وهو منهجُ التفسير الأثري النظري، وهذا المنهجُ ملحوظٌ في تفسيرِ الطبري، لأن الطبريَّ ألَّفه على قواعدِ هذا المنهج.

والخطواتُ المرحليةُ لمنهج التفسير الأثري النظري هي: تفسيرُ القرآن بالقرآن، ثم تفسيرُ القرآن بالسنة الصحيحة، ثم تفسيرُ القرآن بأقوال الصحابة، والتابعين، ثم تفسيرُ القرآن باللغة، ثم استنباطُ المعاني والدلالات والأحكام.

وهذه الخطواتُ المرحليةُ المنهجيةُ متوفرةٌ في تفسيرِ الطبري، بحيث شكلتْ قواعدَ لمنهجه في التفسير.

١ ـ الطبري يفسر القرآن بالقرآن:

كان الطبريُّ حريصاً على تفسيرِ القرآن بالقرآن، واستحضارِ الآياتِ الأخرى في نفس الموضوع، وله في هذا مقدرةٌ فائقة، فهو حافظٌ لكتابِ الله، وهو متدبِّرٌ له، متعمِّقٌ في فهمه، متشبِّعٌ به، يُحسنُ تذكُّر واستحضارَ الآيات.

وهو يفعلُ ذلك لأنه يعلمُ أنَّ القرآنَ يفسِّرُ بعضُه بعضاً. يقولُ في مقدمته:

«اللهمَّ فوفِّقنا لإصابةِ صوابِ القولِ في محكمِه ومتشابهه، وحلالِه وحرامه، وعامِّه وخاصِّه، ومُجْمَلِه ومفسَّرِه، وناسخِه ومنسوخِه. وظاهرِه وباطنه، وتأويل

آيه، وتفسيرِ مشكلِه، وألْهِمْنا التمسكَ به، والاعتصامَ بمحكمِه، والثباتَ على التسليم لمتشابهه»[1].

وقد امتلأَ تفسيرُ الطبري بالآياتِ المفسَّرة التي فسَّرَ الطبريُّ بها الآيات التي بين يديها. وكان الأستاذُ محمود شاكر رحمه الله يعملُ جدولاً بهذه الآيات في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ التفسير التي نشرها، وكان الجدولُ يزيد على خمس صفحات أحياناً!!.

ونورد على ذلك هذا المثال:

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وجَّهَ الطبريُّ حكمةَ نسبةِ بني إسرائيل إلى أبيهم إسرائيل - يعقوب - عليه السلام، في قوله: «يا بني إسرائيل». وقال في ذلك: «نَسَبهم اللهُ إلى يعقوب، كما نسبَ ذريةَ آدم إلى آدم في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأوردَ قول أبي العالية ومجاهد وابن زيد في المراد بالنعمة في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ وأنها تشملُ النعمَ عامّة، وأهمُّ ما تنطبقُ عليه نعمةُ الإيمان والإسلام لأنه لا نعمة أفضلُ من الإسلام، والنعمُ الأُخرى تابعةٌ لها. واستشهدَ على هذا بقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

واعتبرَ تذكيرَ الله بني إسرائيل بنعَمِهِ عليهم في هذه الآية على لسانِ رسول الله ﷺ، كتذكيرِ اللهِ بني إسرائيل بذلك على لسان موسى عليه السلام، واستشهدَ على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١/ ٦؛ وطبعة الفكر: ١/ ٤ ـ ٥.

ولما فسَّرَ عهدَ الله في الآية: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ اعتبر المرادَ به في الآية عهدَه إلى بني إسرائيل الذي أخذه عليهم في التوراة، من الإيمان بمحمدٍ ﷺ واتِّباعه.

واستشهدَ على ذلك بآيات القرآن: قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧][1].

٢ ـ الطبري يفسر القرآن بالسنة:

كان الطبريُّ يفسرُ القرآنَ بأحاديثِ رسول الله ﷺ، ويوردُ تلك الأحاديثَ بأسانيدها، ويذكُرُ طُرُقَ كلِّ روايةٍ مهما تعدَّدَت واختلفت.

ولما قمتُ بتهذيبِ تفسيرِ الطبري، وقام الأخ إبراهيم العلي بتخريج الأحاديث المرفوعةِ إلى النبي ﷺ في التهذيب، بَلَغَتْ تلكَ الأحاديثُ سبعمئة حديث بالتمام، وهذه أحاديثٌ منتقاةٌ من وسطِ أحاديث كثيرة، منها الصحيحُ المكرر، ومنها الحسن، ومنها الضعيف، ومنها المردود، وهذه الرواياتُ تربو على آلاف!.

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١/ ٥٥٣ ـ ٥٥٨؛ وطبعة الفكر: ١/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

ونوردُ على تفسيرِه القرآنَ بالحديثِ هذا المثال:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

لما فَسَّرَ قولـه: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ﴾، فَسَّرَهُ بحديث رسول الله ﷺ الذي يُخبرُ فيه أنَّ مَنْ غَلَّ وخانَ وسرقَ شيئاً فإنه يأتي حامِلاً له يومَ القيامة.

روى بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله قامَ خطيباً، فوعَظَ وذكَّرَ، ثم قال: ألا عسى رجلٌ منكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبتِه شاةٌ لها ثُغاء (صوت الشـاة)، يقول: يا رسـولَ الله أَغِثْني! فأقول: لا أَملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك! ألا هل عسى رجلٌ منكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته فرسٌ لها حَمْحَمَة (صوت الفرس)، يقول: يا رسول الله: أَغِثْني! فأقول: لا أَملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك! ألا هل عسى رجلٌ منكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته صامِتٌ (ذهب وفضة)، فيقول: يا رسولَ الله أَغِثْني! فأقول: لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغتُك! ألا هل عسى رجلٌ منكم يجيء يومَ القيامة على رقبته رِقاعٌ تَخْفق (ثياب تلوح)، يقول: يا رسولَ الله: أَغِثْني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً! قد أبلغتُك!»[1].

وأوردَ طريقيْن آخرين لهذا الحديث بإسنادين مختلفين.

وروى بإسنادِه عن أبي حميد الساعديِّ رضي الله عنه قال: استعملَ رسولُ الله ﷺ رجلاً من الأَزْد، يقال له: (ابنُ الأُتْبِيَة) على صدقاتِ بني سليم. فلمّا جاءَ قال: هذا لكم، وهذا هديةٌ أُهديتْ لي!.

فقالَ رسول الله ﷺ: أَفلا يجلسُ أحدكمُ في بيته، فتأتيه هديتُه! ثم حمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإني أستعملُ رجالاً منكم على أُمورٍ مما ولاَّني

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٧٣؛ ومسلم برقم: ١٣٨١؛ وأحمد: ٢/ ٤٢٦؛ وانظر تهذيب تفسير الطبري: ٢/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

الله، فيقول أحدهم: هذا الذي لكم، وهذا هديةٌ أُهديت إليّ، أفلا يجلسُ في بيتِ أبيه أو في بيت أُمّه، فتأتيه هديتُه؟.

والذي نفسي بيده لا يأخذُ أحدُكم من ذلك شيئاً إلاّ جاءَ به يومَ القيامة يحملُه على عنقِه، فلا أعرِفنَّ ما جاء رجل يحملُ بعيراً له رُغاء، أو بقرةً لها خُوار، أو شاةً تَيْعَر (تصيح بصوت عال). ثم رفعَ يدَه فقال: ألا هل بلَّغْت!؟»[1].

وأوردَ طريقين آخرين لحديث أبي حميد الساعدي عن (ابن الأُتْبِيَة).

ومجموعُ طرقِ ورواياتِ الأحاديث التي أَوردها الطبري في تفسير قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ثلاثَ عشرةَ طريقاً ورواية! وهذا عدد كبير![2].

٣ ـ الطبري يفسر القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

كان الطبريُّ يفسرُ القرآنَ بأقوالِ الصحابة والتابعين، ويُكثِرُ منها، وتفسيرُه حاوٍ للكثيرِ من أقوالهم وتفاسيرهم.

وكان يوردُ أقوالَهم مسندة، ويوردُ أكثرَ من طريقٍ للقول الواحد، وإذا اختلفتْ أقوالُ الصحابة والتابعين في التفسير كان يوردُها ويذكرُ أدلتهم وبراهينَهم، ويرجحُ الراجحَ المناسبَ منها، ويستدلُّ له.

ونوردُ على هذا مثالاً:

تفسير قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ذكرَ الطبريُّ اختلافَ الصحابةِ والتابعين في تعيين الصلاة الوسطى:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٤٦؛ والبيهقي في السنن: ٧/ ١٦؛ وأحمد في مسنده: ٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٢) انظر تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ٧/ ٣٥٦ ـ ٣٦٤؛ وتهذيب تفسير الطبري: ٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٣.

١ ـ فقال بعضُهم: هي صلاةُ العصر.

وهذا قولُ عليٍّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعائشة، وأم سلمة، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وزر بن حبيش، وقتادة، والضحاك، ومجاهد.

والآثارُ التي أوردها كانت ثلاثة وأربعين أثراً، كلُّها مسندة![1].

وذَكَرَ حجة هذا القول، وهي حديثٌ مرفوع.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شَغَلَ المشركونَ رسول الله ﷺ عن صلاةِ العصر حتى اصفرَّت الشمسُ أو احمرَّت. فقال ﷺ: «شَغلونا عن الصلاةِ الوسطى، ملأَ اللهُ أجوافَهم وقبورَهم ناراً»[2].

وعن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ يومَ الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى آبتِ الشمس، ملأَ اللهُ قبورَهم وبيوتَهم ناراً»[3].

وأوردَ ستّاً وعشرين طريقاً وروايةً لهذه الأحاديثِ المرفوعة التي يصرِّحُ فيها رسولُ الله ﷺ بأنَّ الصلاةَ الوسطى هي صلاةُ العصر[4].

٢ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى صلاةُ الظهر.

وهذا قولُ زيد بن ثابت، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر. وأوردَ ثلاثَ عشرةَ روايةً وطريقاً لهذا القول[5].

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ٥/ ١٦٨ ـ ١٨٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٦٢٨؛ والترمذي برقم: ١٨١؛ وابن ماجه برقم: ٦٨٦؛ وأحمد: ١/ ٣٩٢.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٣١؛ ومسلم برقم: ٦٢٧؛ وأبو داود برقم: ٤٠٩؛ والترمذي برقم: ٢٩٨٤.

(٤) تفسير الطبري تحقيق شاكر: ٥/ ١٨٢ ـ ١٩٨.

(٥) المرجع السابق: ٥/ ١٩٨ ـ ٢٠٧.

٣ ـ وقرأ آخرون: حافِظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى وصلاةِ العصر. وهذه قراءةٌ تفسيرية. توضّحُها الآثارُ السابقة.

وأوردَ عشرَ رواياتٍ مسندةٍ لهذا القول.

٤ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى صلاة المغرب. وهذا قولُ قبيصة بن ذؤيب.

٥ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى صلاةُ الفجر.

وهذا قولٌ منسوبٌ لابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وأبي العالية، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، ومجاهد، وعبد الله بن شداد، والربيع بن أنس.

وأوردَ سبعَ عشرة روايةً مسندةً لهذا القول.

٦ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى إحدى الصلوات الخمس، ولا نعرفُها بعينها، وهذا قولٌ منسوبٌ لعبد الله بن عمر، ونافع مولاه، والربيع بن خثيم، وسعيد بن المسيب.

وأوردَ ثلاث رواياتٍ مسندةٍ لهذا القول.

وكان يذكُرُ علّةَ كلِّ قولٍ من الأقوالِ الستة السابقة، ويبينُ دليلَه وبرهانَه.

بعدَ ذلك رجَّحَ أنَّ الصلاة الوسطى هي صلاةُ العصر قال: «الصواب من القول في ذلك ما تظاهرَتْ به الأخبارُ عن رسول الله ﷺ التي ذكَرناها قبلُ في تأويله، وهو أنها العصر».

واستدلَّ لهذا القولِ الراجح بأحاديثَ أُخرى عن رسولِ الله ﷺ، إضافةً إلى الأحاديثِ المرفوعة الصحيحة السابقة.

منها حديثُ أبي بصرةَ الغفاري، وحديثُ بُريدة، وحديثُ عمارة بن رُوَيبَة، رضي الله عنهم.

وأوردَ سبعَ رواياتٍ مسندةٍ لتلك الأحاديث.

وهكذا نرى أنَّ الإمامَ الطبريَّ قد فسَّرَ الآيةَ بأحاديثَ مرفوعةٍ لرسول الله ﷺ، وأقوالٍ موقوفةٍ على الصحابة والتابعين. من هذه الأحاديث والأقوال ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف.

وكانت الرواياتُ التي أَوردَها مئةً وتسعَ عشرة رواية. وقد ملأت ستين صفحة من التفسيرِ الذي حققه محمود شاكر رحمه الله.

٤ ـ الطبري يفسِّر القرآن باللغة:

تفسيرُ القرآنِ باللغة العربية: نحوها وصرفِها وبلاغتِها وبيانِها واشتقاقِها وتصريفها وشواهدها وتوجيهاتها قاعدةٌ أساسية من قواعدِ منهج الإمامِ الطبري في التفسير. ولا ننسى ما قلناهُ سابقاً من أنَّ تفسيرَه مبنيٌّ على ثلاثةِ أركان: الأثر، واللغة، والنظر.

لقد كان الإمامُ الطبريُّ متمكِّناً من اللغةِ العربية، متبحِّراً فيها، متذوِّقاً لأساليبها، واحتكمَ إليها في تفسيرِ القرآن.

وكانَ الأستاذ محمود شاكر يعملُ جدولاً لمباحثِ اللغة في نهايةِ كلِّ جزءٍ من أجزاءِ التفسير الستة عشر التي حقَّقها، وفيه من دقائقِ الإشارات والمباحث والتحقيقات اللغوية. ويعملُ جدولاً آخر لمعاني كلماتِ القرآنِ الواردةِ في الجزء واشتقاقها.

ونوردُ على ذلك هذا المثال:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

قال ابنُ جرير: اختلفَ أهلُ التأويل في معنى قوله: «وفار التنور».

١ ـ فقال بعضهم: التنّور: وجهُ الأرض. والمعنى: انبجسَ الماءُ من وجه الأرض. وذَكَرَ مَنْ قالَ هذا: ابنُ عباس وعكرمة والضحاك. وأوردَ أقوالَهم مسندة.

٢ ـ وقال آخرون: التّنّور: تنويرُ الصبح وإشراقُه وضياؤُه، من قولهم: نَوَّرَ الصبحُ تنويراً. وهذا قولُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأوردَ خمسَ رواياتٍ مسندة في ذلك.

٣ ـ وقال آخرون: التّنُّور: أشرفُ وأَعلى مكانٍ في الأرض. والمعنى: فارَ أَعلى وأشرفُ مكانٍ في الأرض بالماء. وهذا قولُ قتادة. وأوردَ له روايتين مسندتين.

٤ ـ وقال آخرون: التّنّور: هو الذي يُخبزُ به الخُبز. وهذا قولُ ابن عباس والحسن البصري ومجاهد والشعبي والضحاك. وأوردَ عشرَ رواياتٍ مسندةٍ لهذا القول.

قالَ ابنُ عباس: المعنى: إذا رأيتَ تَنّورَ أَهلِك ينبعُ ويخرجُ منه الماء، فإنه إهلاكُ قومك.

أَمامَه أربعةُ أَقوال في معنى (التّنّور) عن الصحابة والتابعين، فما هو الراجحُ منها؟ الراجحُ هو القولُ المتفقُ مع اللغة، لأنه لا يجوزُ مخالفةُ اللغة، فالقرآنُ يحتكمُ في فهمِه إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيه عند العرب.

لنستمعْ إلى الإمامِ أبي جعفر وهو يقول: «.. قالَ ابنُ عباس: (فارَ): نَبَعَ يفور، فَوْراً، وفُؤُوراً، وفوراناً. وذلك إذا سارَتْ دفعتُه!.

«قال أبو جعفر: وأَولى هذه الأقوالِ عندنا بتأويل (التنور) قولُ مَنْ قال: هو التّنّور الذي يُخبزُ فيه.

لأنَّ هذا هو المعروفُ من كلامِ العرب. وكلامُ الله لا يوجَّهُ إلاّ إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيه عند العرب. إلاّ أنْ تقومَ حجةٌ على شيء منه بخلافِ ذلك، فيُسَلَّمُ لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى ما خاطبهم به»[1].

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١٥/ ٣٢١؛ وانظر الموضوع كله فيه: ١٥/ ٣١٧ ـ ٣٢١.

وهذه الأقوالُ أوردَها الطبريُّ شواهدَ له على أنَّ المرادَ بالزوجين في قوله تعالى: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ اثنان من كلِّ صنف، الذكر والأنثى، فالذكرُ زوج، والأنثى زوج، والاثنان زوجان.

والدليلُ على ذلك اللغةُ العربية، وكلامُ الشعراء العرب، وفهمُ نحويّي البصرة والكوفة، وتفسيرُ علماء التابعين كمجاهد وقتادة.

فابنُ جرير قدَّمَ شواهد قوية مأمونة على تفسيره الذي قال به.

لقد وقفَ في تفسيرِ الآية التي نتحدثُ عنها ثلاث وقفاتٍ لغوية: معنى (فار)، واشتقاقُ الكلمة. ومعنى (التنور)، والدليلُ اللغويُّ على الراجح في معناه. ومعنى (زوجين)، والشاهدُ اللغويُّ له.

٥ ـ الطبري يستنبط الدلالات واللطائف والأحكام:

خَطا الطبريُّ في تفسيره الخطوة الأخيرة من خطواتِ أحسنِ طرقِ التفسير، وحققَ فيه القاعدة الأخيرة من قواعدِ منهجِ التفسير الأثري النظري، وهي استنباطُ المعاني والأحكام، واستخراجُ الدلالاتِ واللطائف، وإعمالُ الرأي، ودقةُ النظر، وعمقُ الاجتهاد، وأصالةُ التأويل، وهذه ثمرةٌ لما قبلَها من قواعدِ المنهجِ التي أشرنا لها.

وتفسيرُ الطبري مليءٌ باستنباطاته وروائعِه التأويلية.

ونكتفي بالإشارةِ إلى هذه القاعدة بهذا المثال:

تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]

من مباحثِ أبي جعفر في تفسيرِ هذه الآية أنه تساءل: مَنْ هؤلاء المغضوبُ عليهم الذين أمَرَنا اللهُ أنْ نسأله أنْ لا يجعلَنا منهم؟.

قال: هم اليهود. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ثم تساءلَ أبو جعفر: ما الدليلُ على أنَّ المغضوبَ عليهم هم اليهود؟.

فأجابَ بأنَّ الدليل هو الحديث. فروى بإسناده عن عديِّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: المغضوبُ عليهم هم اليهود[1].

ثم أوردَ أربع عشرة روايةً مسندةً لحديثٍ مرفوع أو قولٍ موقوف على صحابي أو تابعي بأنَّ المغضوبَ عليهم هم اليهود.

ثم بيَّنَ أبو جعفر معنى وصفة غضبِ اللهِ عليهم:

فقال بعضُهم: معنى غضبِ اللهِ عليهم إحلالُ عقوبته بهم، إمّا في دنياه، وإمّا في آخرتِه. لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقال آخرون: غضبُ اللهِ عليهم ذمُّه لهم ولأفعالِهم.

وقال آخرون: فرْقٌ بين غضبِ الله وغضبِ المخلوقين، فغضبُ المخلوقين لأنَّ غيرهم يزعجونَهم ويؤذونَهم، فيشقُّ ذلك عليهم ويَغضبون منهم.

أمّا اللهُ فإنه لا يستطيعُ المخلوقون ضرَّه ولا نفعَه، والغضبُ صفةٌ له تليقُ بعظمته، كما أنَّ العلمَ صفةٌ له، والقدرةُ صفةٌ له.

ولما فسر قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقفَ وقفةً مطولةً يبينُ فيها دورَ كلمةِ (لا) في الجملة، وردَّ على منْ زعمَ أنَّها زائدة، جيءَ بها لتتميم الكلام. وهي وقفةٌ لغويةٌ نحويةٌ رائعةٌ عميقة.

وخلاصتُها أنَّ كلمة (لا) لتأكيدِ النفي، وأن المعنى: اهدنا الصراطَ المستقيم، الذي هو صراطُ الذين أنعمتَ عليهم، لا المغضوب عليهم، ولا الضالين.

ثم تساءل: مَن هم الضالون؟ وأجابَ بأنهم النصارى.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٩٥٤؛ والطيالسي برقم: ١٠٤٠؛ وابن حبان برقم: ٧٢٠٦؛ وأحمد: ٤/ ٣٧٨ـ٣٧٩.

وفعلوه، وهو يُنسَبُ إلى الله تعالى باعتباره إرادةً منه، أوجدَه اللهُ وأنشأه، وجعل عبادَه قادرين على اكتسابه وفعله!.

وهذا من روائع نظراته واستنباطاته، وتوفيقه بين الآيات، وحسنِ فهمِها وتوجيهها.

وهكذا كان منهجُ الطبريّ في التفسير منهجاً أصيلاً جامعاً، صادراً عن علمٍ غزير، ومنهجيةٍ موضوعية فريدة، جمعَ بين اللغةِ والأثر والنظر، وفسر القرآنَ بالقرآن والسنة وأقوالِ الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وسَجَّلَ فيه روائعَ نظره واستنباطه واجتهاده.

من مزايا تفسير الطبري وأهم المآخذ عليه:

تفسيرُ الإمامِ الطبري أهمُّ التفاسيرِ على الإطلاق، والطبريُّ إمامُ المفسرين بجدارة، وقد توسَّعنا في الكلام عن الطبري وتفسيره قليلاً في هذا المبحث لأنهُ يستحقُّ ما قلناه، ولم نَقُلْ إلا كلاماً قليلاً عنه وعن تفسيره، فهناك الكثيرُ من الكلام الذي يجبُ أن يُقالَ عنه، لكنَّ المقامَ في هذه الدراسة لا يتسعُ لذلك.

ونختمُ كلامَنا هنا بالإشارةِ إلى أهمِّ مزايا التفسير، وأهمِّ المآخذ التي تُؤخَذُ عليه.

لقد توفَّرَتْ لتفسيرِ الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) مزايا عديدة، جعلَتْهُ يحتلُّ الصدارة في كتبِ التفسير. من أهمها:

١ ـ تأسيسُ التفسيرِ على ثلاثةِ أُسُسٍ متوازنة ضرورية في التفسير، وهي: اللغة والأثر والنظر.

٢ ـ الالتزامُ بأحسنِ طرق التفسير، من تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وبأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم.

٣ ـ جمعُ أقوالِ أعلامِ المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم والاحتفاظُ بخلاصةِ تفاسيرَ مأثورةٍ سابقة، فُقدتْ وضاعَتْ أصولُها.

٤ ـ ذكْرُ الأسانيدِ المختلفة للروايات المأثورة، ولو تعددت طرقُها، وهذا ضروريٌّ لتخريج تلك الروايات والحكمِ عليها، وقبولِ الصحيح منها، ورفْضِ الضعيف. ولو حُذفت الأسانيدُ ـ كما فعل مفسرون لاحقون ـ لما أمكن ذلك!.

٥ ـ تسجيلُ الكثيرِ من الشواهدِ الشعرية في تفسير الآيات، وحفظُها من الضياع.

٦ ـ الجمعُ بين التفسير والتأويل، وعدمُ الوقوف عند التفسيرِ فقط، والتنسيقُ بين الأثرِ والنظر، والمنقولِ والمعقول.

٧ ـ إيرادُ القراءات المختلفة من صحيحةٍ أو شاذة، وتوجيهُها وذكرُ حججها، والاستدلال لها، وتفسيرُ الآيات بها.

٨ ـ التوسُّعُ بذكْرِ أقوالِ المخالفين وأدلتِهم، وتوجيهُها وبيانُ حججها، وهذا من باب العلمية والموضوعية.

٩ ـ ترجيحُ الراجحِ من الأقوال في تفسير الآية، وتوجيهُه والاستدلالُ له، وذكْرُ أسبابِ الترجيح. وعدمُ إبقاءِ القارئ في متاهةٍ أمامَ تلك الأقوالِ المتعارضة.

١٠ ـ تقريرُ قواعدِ وأُسُسِ التفسيرِ المنهجية، سواء في (رسالة التفسير) في بداية تفسيره، أو في المواضع الأخرى المتفرقة فيه. وتقديم (أصول التفسير) بصورةٍ واضحة للقارئ.

ومن باب الموضوعية في التقويم ـ التي تحدَّثنا عنها في الفصل الثاني من هذه الدراسة، وحتى يكونَ ميزانُنا عادلاً ذي كفتين، نشيرُ إلى أَهمِّ المآخذِ التي قد تؤخَذُ على تفسيرِ الطبري:

١ ـ إيرادُ الأسانيدِ الضعيفة أو الموضوعة.

٢ ـ عدمُ نقدِ الروايات والطرق والأسانيد التي يوردُها، وعدمُ الحكمِ عليها، وعدمُ الحكمِ على رجالها، ونادراً ما كان يفعلُ الطبريُّ ذلك.

٤ ـ ذكرُ أقوالٍ متعارضة عن بعضِ أعلامِ المفسرين من الصحابة والتابعين، كابن عباس ومجاهد.

٥ ـ الخوضُ في (مبهمات القرآن)، ومحاولةُ بيانها وتعيينها وتفسيرها، وأخذُ بيانِها من الإسرائيليات وغيرِها من الروايات التي لم تصح.

٦ ـ حذفُ إسنادِ بعضِ الأحاديث عن رسول الله ﷺ أحياناً، مع حرصِه على الإسناد، وذكرُ عدةِ طرقٍ مسندةٍ للخبر الواحد.

٧ ـ عدمُ إسنادِ القراءاتِ إلى أصحابها من القُرّاء المشهورين غالباً، وعدمُ النصِّ على صحةِ القراءة، وعدمُ التمييز بين القراءات الصحيحة والشاذة.

٨ ـ الترجيحُ بين القراءاتِ الصحيحة أحياناً، وتفضيلُ قراءةٍ صحيحة على قراءةٍ أُخرى صحيحة، وتصريحُه بعدمِ جوازِ القراءة بقراءاتٍ صحيحة أحياناً.

٩ ـ تجزئةُ الآيةِ إلى جملٍ قصيرة أحياناً، وتفسيرُها جملةً جملة، مما يُؤدّي إلى قطعِ الوحدةِ الموضوعية للسورة أو الدرس، وإشغالُ القارئ بالأقوالِ الكثيرةِ المختلفة.

١٠ ـ الجملُ الكثيرةُ المعترضة في الصياغة، مما يُتعبُ القارئ في إعادةِ الضمائرِ في الجمل، وربطِ الجملِ بعضها ببعض.

وهذه المآخذُ ـ وغيرُها ـ ثانوية، وهي أخطاءٌ فرعية وليست أصلية، والإمامُ الطبريُّ ليس معصوماً، والخطأُ من سمات البشر، وصدق فيه قول الشاعر:

ومَنْ ذا الذي تُرْضى سَجاياهُ كُلُّها كفى المرء نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعايِبُهْ

* * *